وقد نقل ابن خـلكان قول النضر بن شمـيل عن الخليل أنه لم يكـن يقدر على فلسين ، وأن الخليل كان يقول : « إنى لأغلق علىّ بابى فما يجاوزه همّى » [1] وهذه الصورة نفسها من الوحـدة والانقطـاع عن الدنيا هى التى يصورها ياقوت الحموى [2] بل إن أحد المـؤرخين [3] يصفـه بأنـه كان أشعـث الرأس شاحب اللون ، قشف الهيئـة متمزق الثياب متفلع (متشقـق) القدمين كان يخرج من منزله فلا يشعر إلا وهو فى الصحراء ولم يردها لشغله بالفكر .

وإذا كان الخليل زاهداً متقشفًا عن متاع الدنـيا الزائل لا يلقى لمباهجها بالاً ولا يقيم لزخارفها وزنًا ، يرفض أن ينغمـس فى ترك الدنيا ومساوئ نعيمها ، مؤمنًا بزوال لـذائذها وانقطاع أسـبابها يرغب عنـها خداعًا زائفًا ومتعـة عاجلة عابرة وحطامًا فانـيًا . أقول إذا كان الخليل بهذه الدرجة مـن الزهد فلا أظن أن يترك نفسه لـيتمزق ثيابه وتتشقـق قدماه ويشحب لونه وتغبـر رأسه ومن حوله تلاميذه ومـحبّوه الذين أشادوا بعلـمه وعبقريته ونـطقوا بشهادات تمجـد خلقه وورعه وتقواه . وأعتـقد أن كل ما فى الأمر هو أن رجلاً بهـذا الورع والتقوى يمكن أن تنسج حوله الحكايات تدليلاً على ذلك .

والحقيقـة أننا عندما نقـرأ عن الخليل وأخبـاره وذكائه وعبقريتـه ، ونتأمل أشعاره الواردة فى الكتب المختلفة ، ونماذجه التى مثّل بها فى قصيدته النحوية فإننا نجد شـخصًا مقدمًا على الحياة متـمتعًا بلقاء الناس فى حـوارات علمية أو اجتماعية صاحـب غزل رقيق وخيال خصب ، تسبيه المرأة الحسـناء بجمالها ، يتحرك قلبه لدواعـى الهوى . ولعلنا فيما يلى نجد ما يفـصح عن تلك الظاهرة الاجتماعية ، فهو ليس منعزلاً عن المجـتمع ، حابسًا نفسه ، إذ تعلُّم الفصاحة

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ، المجلد الثانى ص٢٤٥ .

(٢) معجم الأدباء ١١/ ٧٢-٧٥ .

(٣) الشريشـى فى كتابه (شرح المـقامات الحريرية) ص٢١٣ ، وانظـر النص فى الأعلام للـزركلى فى ترجمة الخليل .